المبحث الخامس عشر

نفع الناس بالإصلاح بينهم

إن أي مجتمع إذا دبَّت الخصومات بين أفراده وتأججت نار القطيعة والهجر ، ونزغ الشيطان بينهم ، يصبح هذا المجتمع على شفا حفرة من النار ، فإن الروابط الاجتماعية والعُرى الإنسانية سوف تتهشم،ومثل هذا المجتمع بحاجة إلى من يعمل على إنقاذه ورأب صدعه ورتق خرقه،وهذا إنما يتم بالسعي للإصلاح بين الناس.

وهذا عمل جليل ، وخدمة نافعة ، يمكن أن يقدمها كل مؤمن إلى مجتمعه الذي هو جزء من كيانه ، قال تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾ [النساء : ١١٤] .

أفرأيت كيف نفى الحق تعالى أن يكون في كثير من الكلام الذي يصدر عنا خيراً ، إلا أن يكون ذلك أمرًا بصدقة وحضًا على طعام مسكين ، أو أي نوع من صنائع المعروف أو الإصلاح بين الناس .

ولقد حثَّ الإسلام كثيراً على إصلاح ذات البيْن ، سواء على مستوى الجماعة أو بين الأفراد ، فقال تعالى :

- ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ﴾ [الحجرات : ٩] .
- ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . [الأنفال : ١] .

❁ ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾[النساء : ١٢٨] .

وفي السُّنَّة المطهرة جاءت عدة لفتات إلى فضل الإصلاح بين الناس ، فمن ذلك :

❁ عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟** » ، قالوا : بلى ؟ ، قال : « **إصلاح ذات البيْن ، فإن فساد ذات البيْن هي الحالقة** » ، وفي رواية : « **هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين** » (١) .

❁ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **أفضل الصدقة إصلاح ذات البيْن** » (٢) .

❁ وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب رضي الله عنه :«**ألا أدلك على تجارة**»، قال : بلى، قال : «**صل بين الناس إذا تفاسدوا وقرِّب بينهم إذا تباعدوا**»(٣) .

❁ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس ، يعدل بين الاثنين صدقة** ... » (٤) .

أي يصلح بينهما .

وهذه الآيات السابقة والأحاديث ، من شأنها أن تُفعِّل المسلمين للسعي بالإصلاح بين الناس ، ففيها بيان أن الصلح خير، وأنه واجب ، وأن ثوابه عظيم ، وأن فيه إنقاذًا للمؤمنين من الحالقة التي تلحق دينهم ، وهي فساد ذات البيْن .

ولكن للأسف نحن نرى ـ الآن ـ على المستوى الجماعي يتقاتل المسلمون ويتخاصمون ، وعلى المستوى الفردي ـ أيضًا ـ وسبحان الله، يقف كثير من المسلمين متفرجًا في بلاهة عمياء ، وكأن الأمر لا يعنيهم، ومن يتدخل للإصلاح ربما لا يستحضر هذه النية الشرعية ، وإنما بدافع حبّ الزعامة والشهرة ـ إلا من

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٨١٤) .
(٢) المرجع السابق برقم (٢٨١٧) .
(٣) المرجع السابق برقم (٢٨١٨) .
(٤) المرجع السابق برقم (٢٩٨٩) .

رحم الله ـ ودليل ذلك أنه لمجرد أن يناله شيء يترك ميدان الإصلاح ويرفع يده ، ويقول على حدّ قول القائل : « يأكلوُ بعض » ، « ما ينوب المخلّص إلا تقطيع ثيابه »، « تعمل خير ينقلب عليك شر » ... وهكذا .

لقد كان مَنْ قبلنا يسعون للإصلاح بين الناس محتسبين ، وربما يتحملون الحمالات ، ويُنال منهم ومع ذلك يصبرون .

وانظر كيف رفع الإسلام بعض الحرج عمَّن يسعى بالإصلاح بين الناس ، لأنه لابد أن يعمل على تطيب الخواطر والقلوب النافرة ، وربما يضطره هذه إلى نقل كلام جيّد على لسان كل من الخصمين للآخر ، وفي الغالب لا يجودان بمثله في تلك الظروف فجاز له أن يَدَّعيه ولو تورية ولا يعتبر من الكذب .

جاء في الحديث عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ﵂، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ، فينمي خيراً ، أو يقول خيراً** » (١) .

« وهذا يعني أن الإنسان إذا قصد الإصلاح بين الناس ، وقال للشخص : إن فلانًا يثني عليك ويمدحك ويدعو لك وما أشبه ذلك من الكلمات ، فإن ذلك لا بأس به ... ويَحْسُن أن يكون هذا على سبيل التورية ، بأن يقصد المصلح أن المسلم إذا دعا فعمّم في دعائه دخل فيه كل مسلم ... وهكذا » (٢) .

وما كان هذا الترخيص ، ورفع الحرج إلا ليُعان الساعون بالإصلاح على القيام بهذه المهمة الجليل والعمل النافع ، الذي يحفظ على الناس دينهم من الحلق ، ويصفّي نفوسهم ، ويحقن دماءهم ، ويؤلف بين قلوبهم بإذن الله تعالى .

ولابد أن يتفاعل المجتمع مع المصلحين بقبول الحلول والانصياع لما يقضون به، خصوصًا إذا كان من حلول الشرع الحنيف،فقد أثنى الله ـ عز وجل ـ خيراً على من

---

(١) البخاري برقم (٢٦٩٢) ، ومسلم (١٠) في البر والصلة .

(٢) انظر : شرح رياض الصالحين ، لابن عثيمين ، (١ / ٦١٤ - ٦١٥) .

يقبلون حكم الله ورسوله دون تردد ، قال تعالى :﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) ﴾ .

[النور : ٥١] .

وتبدو الحاجة ملحَّة إلى دراسة المجتمع النبوي دراسة اجتماعية تشكلها هذه الملامح :

أولاً : بشرية المجتمع النبوي وعدم مجاوزته هذا الإطار ، وبالتالي كانت هناك مشكلات ، ولكنها سرعان ما كانت تُحَل .

ثانيًا : لأن هناك من يسعى للإصلاح ، فقد كان النبي ﷺ إذا بلغه أن اثنين بينهما شيء ، ربما قال أصحابه هلموا بنا نصلح بين فلان وفلان ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ثالثًا : تفاعل المجتمع مع المصلحين بسرعة قبول الحلول المطروحة مما كان يحُول دون تضخم المشكلات وتفاقم خطرها .

وهذه قصة لواقعة حصلت فيها خصومة بين رجال ، هم أفضل الأمة وخيرها على الإطلاق ، وفي موقف لا يحتمل الخصومة ، ولكنها الطبائع البشرية إذا أُفسح لها المجال طفحت بخباياها المكنونة ، وكانت هذه الواقعة سببًا لنزول قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾ [الأنفال : ١] [١] .

ولنفسح المجال لرجل شهد الموقف يقصه علينا فليس راءٍ كمن سمع :

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : « نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه بين المسلمين ـ وفي رواية ـ : لما التقى الناس ببدر ، وهزم الله تعالى عدوه ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند برقم(٢٢٨٦٧)وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٧ / ٢٦)رجاله ثقات .

انطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبَّ طائفة على العسكر يحمونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غِرَّة ، حتى إذا كان الليل وفَاءَ الناس بعضهم إلى بعضٍ، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق به منا ، نحن منعنا عنها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ لستم أحق بها منا ، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ خفنا أن يصيب العدوّ منه غِرَّةً فاشتغلنا به ، فنزلت ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ ﴾(١) .

وقد يقول قائل : أهؤلاء هم المهاجرون والأنصار، الذين قال الله فيهم ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ .

[الحشر : ٨-٩] .

فأقول : نعم ، هم المهاجرون والأنصار ، وهذا لا يُنقص من قدرهم ، جاءت الآيات بالحلّ ، تحثهم على التقوى وإصلاح ذات بينهم ، وتعلق تحقيق الإيمان الكامل على التقوى وإصلاح ذات البين ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[الأنفال : ١] أي إن أصلحتم ذات بينكم فذاك برهان إيمانكم ، وإن لم تفعلوا فليس إيمانكم بالكامل على الوجه المطلوب .

ثم توالت الآيات بعد ذلك تذكرهم بالإيمان وعلامات وأوصاف المؤمنين : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾[الأنفال :٢-٤] .

« فهل يفكر أحد بعد هذه الآيات في الغنائم والاختلاف على من أحق بها؟ أم أنه سيفكر في نفسه وأين هو من هذه الأوصاف؟ ، وهل هو مؤمن حقًا أم... ؟ » (١) .

وانظر كيف لما تخاصم الناس على الدنيا نزعها الله من أيديهم كما قال عبادة ابن الصامت رضي الله عنه : لأنها كادت تفسد ذات بينهم ، فلما فاءوا إلى الله وأصلحوا ذات بينهم أتتهم الدنيا راغمة ، فقد نسخ الله ـ تعالى ـ أول سورة الأنفال والذي ينص على أن المغانم لله ورسوله فقط ، بقوله تعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ [الأنفال :٤١] (٢) ، فكانت الغنائم بعد ذلك توزع بحيث يجعل لكل مجاهد سهمًا منها .

- فهل ستبقى أخي المسلم معرضًا على المشاركة في إصلاح ذات البيْن ؟ .
- وهل ستكتفي بوقوف موقف المتفرج على المتخاصمين ؟ .
- وهل سيبقى المتخاصمون في عنجهيتهم لا يقبلون الحلول الإلهية التي يعرضها المصلحون عليهم ؟ .
- ومتى سنبلغ منزلة الذين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم قالوا : سمعنا وأطعنا ؟ .

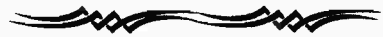

---

(١) **انظر** : د. مجدي الهلالي « الإيمان أولاً » ، (ص٣٣) ، ط. دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة.

(٢) **انظر** : الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم ، هبة الله بن سلامة ،(ص ٢٥) ط. مكتبة المتنبي القاهرة .